

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٩٠ - سُورَةُ الْبَلَدِ

مكية وهي عشرون آية .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تاويل قوله تعالى :

[١] (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

[٢] (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

[٣] (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ)

«لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ» تقدم في مواضع متعددة من التنزيل الكريم تفسير (لَا أُقْسِمُ) و (البلد) هو مكة . وقيد القسم بقوله تعالى « وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ » عناية بالنبي صلوات الله عليه . فكانه إقسام به لأجله، مع تعريض بعدم شرف أهل مكة، وأنهم جهلوا جهلاً عظيماً ، لهمهم بإخراج من هو حقيق به ، وبه يتم شرفه .

قال الشهاب: و(الحل) صفة أو مصدر بمعنى الحال على هذا الوجه. ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته في كتب اللغة . وقيل : معناه وأنت يستحل فيه حرمتك ، ويتعرض لأذيتك . ففيه تعجيب من حلهم في عداوته، وتعريض بتجميعهم وتفريقهم بأنه لا يستحل فيه الحرام ، فكيف يستحل فيه دم مرشد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ؟؟

وقيل : معناه وأنت حل به في المستقبل . تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، إشارة إلى ما سيقع من فتح مكة وإحلالها له ساعة من نهار ، يقتل ويأسر . مع أنها ما فتحت على أحد قبله ، ولا أحلت له . ففيه تسلية له ، ووعد بنصره ، وإهلاك عدوه . و (الحل) على هذين الوجهين ضد (الحرمة) وفيهما - كما قالوا - بُعْدٌ . لاسيما إرادة الاستقبال في الوجه الأخير ، فإنه غير متبادر منه . وإنما كان الأول أولى لتشريفه عليه السلام ، يجعل حلوله به مناطاً لإعظامه ، مع التنبية من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب ، بذكر بعض مواد المسكابدة ، على نهج

براعة الاستهلال ، وإنه كابد المشاق ، ولاقى من الشدائد ، في سبيل الدعوة إلى الله ، ما لم يكابده داع قبله ، صلوات الله عليه وسلامه .

« وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » عطف على ( هَذَا الْبَلَدِ ) داخل في المقسم به . قيل : عنى بذلك آدم وولده . وقيل : إبراهيم وولده . والصواب - كما قال ابن جرير<sup>(١)</sup> - أن المعنى به كل والد وما ولد . قال : وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان ، يجب التسليم له بخصوصه . فهو على عمومته كما عمه . وإيثارُ ( ما ) على ( من ) لإرادة الوصف . فيفيد التعظيم في مقام المدح . وإنه مما لا يكتبه كنهه لشدة إبهامها . ولذا أفادت التعجب أو التعجيب ، وإن لم يكن استفهاماً كما في قوله تعالى<sup>(٢)</sup> ( وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ) أى أى مولود عظيم الشأن وضعت . وهذا على كون المراد إبراهيم والنبي عليهما الصلاة والسلام ، ظاهر . أما على أن المراد به آدم وذريته ، فالتعجب من كثرتهم ، أو مما خص به الإنسان من خواص البشر . كالنطق والعقل وحسن الصورة . حكاة الشباب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ )

[٥] ( أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ )

[٦] ( يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا )

[٧] ( أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُوَ أَحَدٌ )

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » أى في شدة ، يكابد الأمور ويعالجها في أطواره كلها ،

من حمله إلى أن يستقر به القرار . إما في الجنة وإما في النار .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) [ ٣ / آل عمران / ٣٦ ] .

قال الزمخشري : (الكبد) أصله من قولك (كبد الرجل كبدا) فهو أ كبد، إذا جمعت كبده وانتفخت . فأتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة . كما قيل : (كبته) بمعنى أهلكه . وأصله كبده إذا أصاب كبده . قال لبيد<sup>(١)</sup> :

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدًا إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدِ

أى فى شدة الأمر وصعوبة الخطب . انتهى .

وفيه تسلية للنبي صلوات الله عليه ، مما كان يكابده من قريش ، من جهة أن الإنسان لم يخلق للراحة فى الدنيا . وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصباً . هذا خلاصة ما قاله . وقال القاشانى : (فى كبد) أى مكابدة ومشقة من نفسه وهواه . أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب . إذ (الكبد) فى اللغة غلظ الكبد الذى هو مبدأ القوة الطبيعية . وفساده وحجاب القلب وفساده من هذه القوة . فاستعير غلظ الكبد لغلظ حجاب القلب ومرض الجهل .

« أَيَحْسَبُ » أى اغلظ حجابيه ومرض قلبه لاحتجابه بالطبيعة « أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » أى أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على مجازاته وقهره وغلبته . مع أن ما هو فيه من المكابدة يكفى لإيقاظه من غفلته واعترافه بهجره .

« يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَّا لُبْدًا » أى كثيراً . من (تلبد الشيء) إذا اجتمع . والمراد ما أنفقه للافتخار والمباهاة والرياء . كقولهم (خسرت عليه كذا وكذا) إذا أنفق عليه . يتفضل على الناس بالتبذير والاسراف ، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله . ولهذا قال « أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ وَاحِدٌ » أى : أيجسب أن لم يطلع الله تعالى على باطنه ونيته ، حين ينفق ماله فى السمعة والرياء والمباهاة لا على ما ينبغى فى مرضى الله ، وهى رذيلة على رذيلة ، فكيف تكون فضيلة ؟

(١) من كلمة قالها يرثى بها أربد ، أخاه لأمه ، وأولها :

مَا إِنْ تَمَزَّى النُّونُ مِنْ أَحَدٍ لَا وَالِدٍ مُشْفِقٍ وَلَا وَلَدٍ

انظر (رغبة الآمل) ج ٨ ص ١٦٧

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ( أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ )

[٩] ( وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ )

[١٠] ( وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ )

[١١] ( فَلَا أُقْبِحُ الْعَاقِبَةَ )

[١٢] ( وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَاقِبَةُ )

[١٣] ( فَكُ رَقَبَةً )

[١٤] ( أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ )

[١٥] ( يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ )

[١٦] ( أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ )

« أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ \* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » قال القاشاني : أى ألم نعلم عليه بالآلات البدنية التي يتمكن بها من اكتساب الكمال ، ليمصر ما يعتبر به ، ويسأل عما لا يعلم ، ويتكلم فيه ؟

وقال السيد المرتضى : هذا تذكير بنعم الله عليهم ، وما أزاح به عنهم في تكاليفهم ، وما تفضل به عليهم من الآلات التي يتوصلون بها إلى منافعهم ، ويدفعون بها المضار عنهم . لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة . فالحاجة إلى العينين للرؤية ، واللسان للنطق ، والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما في الفم ، والنطق أيضا . وقوله تعالى « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » أى طريق الخير والشر . قال الإمام النجد مشهور في الطريق المرتفعة والمراد بهما طريقا الخير والشر . وإنما سماها نجدين ، ليشير إلى أن في كل منهما وغورة وصعوبة

مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظن ، وإلى أهمها واضحان جليان لا يخفى واحدمهما على سالك . أى أودعنا فى فطرته التمييز بين الخير والشر . وأقناله من وجدانه وعقله أعلاما تدله عليهما . ثم وهبناه الاختيار . فإليه أن يختار أى الطريقة شاء . فالذى وهب الإنسان هذه الآلات ، وأودع باطنه تلك القوى ، لا يمكن للإنسان أن يفات من قدرته ، ولا يجوز أن يخفى عليه شيء من سريره . « فَلَا أُقْتَحَمُ الْعَقَبَةَ » أى فم يشكر تلك النعم الجليلة باقتحام العقبة . و ( الاقتحام ) الدخول والمجازاة بشدة ومشقة . و ( العقبة ) الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . استعارها لما يأتى ، لما فيه من معاناة المشقة ومجاهدة النفس « وَمَا أَدْرَاكَ أَلْعَقَبَةُ » أى أى شيء أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفى الاستفهام زيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة « فَكُ رَقِيبٌ » أى عتقها . أو المعاونة عليه . وتحليصها من الرق وأسر العبودية ، رجوعا به إلى ما فطرت عليه من الحرية « أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ » أى مجاعة « يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ » أى قرابة . قال السيد المرتضى : وهذا حض على تقديم ذوى النسب والقربى المحتاجين ، على الأجنبي فى الإفضال .

قال : وقد يمكن فى ( مقربة ) أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربى ، بل من ( القرب ) الذى هو من الخاصرة ، فكأن المعنى أنه يطعم من خاصرته لصقت من شدة الجوع والضر . وهذا أشبه بقوله تعالى ( ذَا مَتْرَبَةٍ ) لأن كل ذلك مبالغة فى وصفه بالضر . وليس من المبالغة فى الوصف بالضر أن يكون قريب النسب . انتهى . وقوله تعالى « أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » أى فقر شديد لا يواريه إلا التراب . يقال ( تراب ) كأنه لصق بالتراب ، ويقال ( فقر مدقع ) و ( فقير مدقع ) بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهى التراب .

لطيفة :

ذهب الأكثرون إلى أن ( لا ) من قوله ( فلا ) نافية . وإنما لم تكرر ، مع أن العرب لا تكاد تفرد لها ، كما جاء فى آية <sup>(١)</sup> ( فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ) . <sup>(٢)</sup> ( فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) [ ٧٥ / القيامة / ٣١ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٣٨ ] .

يَحْزَنُونَ) استغناء بدلالة بقية الكلام على تكرارها . لأن ( لَا اقْتَحَمَ ) لما فسر بما بعده كان في قوة ( لا فك رغبة ولا أطمع مسكيناً ) وفي الآية أجوبة أخرى . منها أنه لما عطف عليه ، كان وهو منفي أيضاً . فكأنها كررت . وقيل ( لا ) للدعاء . كقولهم ( لا نجاً ولا سلم ) وقيل مخففة من ( ألا ) التي للتخصيص . وقيل : إنها للنفي فيما يستقبل . وقال الإمام : أما ما قيل من أن ( لا ) إذا دخلت على الماضي وجب تكرارها ، ولم تكرر في الآية ، فذلك لا يلتفت إليه . لأن الكتاب نفسه حجة في الفصاحة . وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ )

[١٨] ( أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ )

« ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالحق الذى جاءهم . عطف على المنقّى بـ ( لا ) وهو ( اقتحم ) أو على ( فك ) « وَتَوَاصَوْا » أى أوصى بعضهم بعضاً « بِالصَّبْرِ » أى على ما نابهم في سبيل الدعوة إلى الحق « وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ » أى بالرحمة على بعضهم . كقوله<sup>(١)</sup> ( رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ) أو بموجبات رحمته تعالى من القيام بالحق والصديق به وعمل الصالحات « أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » أى اليمين ، أو جهة اليمين التي فيها السمداء .

تنبيه :

قال القاشاني : يشير قوله تعالى ( فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ) الآيات ، إلى قهر النفس بتكاف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها ، حتى يصير التطبع طبعاً . ثم قال : فإن الإطعام ، خصوصاً وقت شدة الاحتياج للمستحق ، الذى هو وضع في موضعه ، من باب فضيلة العفة

(١) [ ٤٨ / الفتح / ٢٩ ] .

بل أفضل أنواعها - والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها ، وهو الإيمان العلمى اليقينى - والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة - . وآخره عن الإيمان ، لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين . و (المرحمة) أى التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة . فانظر كيف عدّد أجناس الفضائل الأربع التى يحصل بها كمال النفس . بدأ بالعبقة التى هى أولى الفضائل . وعبر عنها بمعظم أنواعها . وأخص خصالها الذى هو السخاء . ثم أورد الإيمان الذى هو الأصل والأساس . وجاء بلفظة (ثم) لبعده مرتبته عن الأولى فى الارتفاع والعلو . وعبر عن الحكمة به لكونه أم سائر مراتبها وأنواعها . ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين . وأخر العدالة التى هى نهايتها ، واستغنى بذكر الرحمة ، التى هى صفة الرحمن ، عن سائر أنواعها . كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

[٢٠] (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا » أى بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق ، التى بكل يرتقى إلى معرفة الصراط التى تجب الاستقامة عليه فى الاعتقاد والعمل « هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » أى الشؤم على أنفسهم ، أوجهة الشمال التى فيها الأشقياء . وقال الإمام : أهل البين ، فى لسان الدين الإسلامى ، عنوان السعداء . وأهل الشمال عنوان الأشقياء « عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ » أى مطبقة أبوابها ، كناية عن حبسهم المخلد فيها ، وسد سبل الخلاص منها . أجازنا الله بفضله وكرمه منها .